الإسلام. وقد كتب أحدُ المؤلّفين الألمان كتابًا يسرُد فيه مرويّةً تاريخيّةً تبدأ بالمفتي وتنتهي بن لادن، وتَشْمل عبدَ الناصر وصدّام حسين وياسر عرفات وآخرين كثيرين يصوِّرون كلُّهم على أنّهم لاساميّون مسعورون. وثمّة كتابٌ آخر أكثرُ جديّةً يستند إلى الأرشيف الألمانيّ النازيّ، ويتناول المخطّطات النازيّة للشرق الأوسط؛ لكنْ أيًا ما كانت الاكتشافاتُ ذاتُ القيمة البحثيّة التي تَضمّنَها فَإنّهَا تَلطّخَتْ بتصريحاتٍ تعميميّةٍ كاسحةٍ عن العرب، مع أنّ مؤلِّفَي الكتاب المقصود ليسا في أيٍّ من الأحوال من الخبراء في شؤون العالم العربيّ، بل هما لا يعرفان لغتَه.

الأمر الأكثرُ لفتًا للنظر هو أنّ هذين المؤلِّفَين يصدِّقان الدعايةَ النازيّةَ والتقاريرَ التي أرسلها العملاءُ الألمان النازيّون إلى برلين! وهكذا فإنّ كلّ العرب، لديهما، كانوا نازيّين لأنّ عملاءَ برلين كتبوا أنّ «جميع العرب يحبّون الفوهرر» ـ وهذا شبيهٌ بوصفٍ لآراء الطبقة العاملة في الولايات المتحدة في الخمسينيّات يستند إلى ما قاله آنذاك عملاءُ موسكو السياسيّون والدعاية السوفياتيّة. إنّه الهراءُ بعينه. ولحسن الحظّ أنّ في ألمانيا أيضًا باحثين جديّين يقفون في وجه هذه الكاريكاتورات.

❖ ❖ ❖

أيّةُ دروس يمكن أن نستخلصَها من المأساة التاريخيّة العظيمة التي مثّلتْها المحرقة النازيّة؟

الدرسُ الخطأ هو أن ينتقل المرءُ من اللاساميّة إلى نوع من محبّة الساميّة (philosemitism) التي انتقدها أشخاصٌ مثل إليونوره شتيرلينغ 1968-1925 [وهي باحثة ألمانيّة يهوديّة تخصّصتْ في تاريخ اللاساميّة في ألمانيا]، أو فرانك ستِرْن، الأستاذ السابق في جامعة بن غوريون في النقب.

إنّ استخلاصَ الدرس الصحيح من المحرقة لا يكون بالانتقال من معاداة الساميّة إلى نقيضها، ليبقى المرءُ ضمن منظورٍ يُفرِد اليهودَ خارج مجرى الأمور الطبيعيّة؛ فهذا المنظور لا يشكّل قطيعةً فعليّةً مع الذهنيّة المعادية للساميّة. إنّ استخلاصَ الدرس الصحيح من المحرقة ينبغي أن يقودَ إلى التمرّد والقتال بشراسةٍ ضدّ كلّ تمظهرات العنصريّة والكراهية الإثنيّة، أكانت العداءَ للساميّة أمْ رُهابَ الإسلام. والحقّ أنّ العنصريّة المعادية للمسلمين هي اليوم الشكلُ الطاغي للعنصريّة الموجودة فعلاً في أوروبا المعاصرة، وهو ما ينبغي أن نبقيَه راسخًا في أذهاننا إذا أردنا أن نستوعبَ دروسَ المحرقة بشكل صحيح.

إنّ استخلاصَ الدرس الصحيح من المحرقة ينبغي أن يقودَ إلى التمرّد والقتال بشراسةٍ ضدّ كلّ تمظهرات العنصريّة والكراهية الإثنيّة، أكانت العداءَ للساميّة أمْ رُهابَ الإسلام.

إنّ المهمّة التي سعيتُ إلى إنجازها في كتابي هي الإسهامُ في فهمٍ حقيقيّ متبادلٍ بين العرب والإسرائيليّين عبر نبذ الخطاباتِ العنصريّة والمرويّات المشوّهة من كلا الجانبين، شرطًا مسبقًا لسلامٍ حقيقيّ. على المواطنين الإسرائيليّين أن يَعْترفوا بالنكبة، أن يعترفوا بالظلم الذي اقترفتْه دولتُهم بحقّ الفلسطينيين، وبالاضطهاد الرهيب الذي تُنزله حاليًا بهم. ولقد قاسى فلسطينيّو غزّة والضفّة الغربيّة بوجهٍ خاصّ مأساةً مروّعة في الأعوام الأخيرة ولا زالوا يقاسونها، وهي أسوأ مأساةٍ خَبِروها على يد إسرائيل في تاريخ الاحتلال الطويل. ولحسن الحظّ أنّ هناك العديدَ من المثقّفين والناشطين الإسرائيليّين يمقتون هذا الاضطهادَ ويقاتلون ضدّه؛ وهناك إسرائيليّون، سواءٌ انتموا إلى «المؤرّخين الجدد» أو إلى «ما بعد الصهيونيّة» (Post-Zionism)، يَرفضون المرويّة التاريخيّة الصهيونيّة ويقاتلون من أجل الحقيقة التاريخيّة والاعترافِ بجرائم الحرب الإسرائيليّة. هؤلاء الإسرائيليّون يقاتلون من أجل تغييرٍ جذريٍّ في السياسة الإسرائيليّة. وعلى الجانب العربيّ، لستُ سوى واحدٍ من كثيرين من أنصار القضيّة الفلسطينيّة المعادين للصهيونيّة الذين يقاتلون بحزمٍ ضدّ أيّ تمظهرٍ لمعاداةِ الساميّة، أو لإنكار المحرقة، ومن أجل حلّ للصراع يتعايش بموجبه العربُ واليهودُ بسلامٍ وعدالة.

لندن

في العدد القادم

■ زياد حافظ: الأخلاق في الاقتصاد الإسلاميّ.